

الصدقة في القرآن



يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنَزَعِمَّا هِيَ وَإِنْ تَخْفُوها وَتُؤْتُوها السُّفُوراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (البقرة/ 271). وقال عز وجل: (إِنْ تَقْرَضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضَاهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (التغابن/ 17-18).

قد يكون هدف المسلم حين يقدم صدقةً أن يكون قدوةً في العطاء؛ فيقتدي الناس بفعله، فيصدقون، فيكون فعله مشجعاً لغيره في أداء الصدقة.

وقد يرغب المسلم أن يخفي صدقته فيقدمها دون ضجة أو إعلان. ويبالغ في إخفاء فعله بقصد أن تبقى بينه وبين ربه لا يبتغي من بذلها إلا وجه الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر رسول الله (ص) أمثال هؤلاء الناس في حديثه: "سبعة يُطلبهم الله تعالى في طلبة يوم لا ظلَّ إلا ظله.. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" (1423 فتح الباري، ص292/3). قال تعالى: (وَإِنْ تَخْفُوها وَتُؤْتُوها السُّفُوراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (البقرة/ 271). فإطهار الصدقة بقصد تشجيع الناس أمرٌ مقبول، وإخفاؤها بقصد تحسين الصلة بالله تعالى أمرٌ فيه خير؛ فالبذل بقصد الشهرة وقصد المراءات يُحبط العمل ويُفقد الأجر.. ومن الذين ذكروهم الله سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (الكهف/ 104-103). (وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى مَنْ عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) (الفرقان/ 23).

والصدقة تُطفئ غضب الرب. فإذا نزلت المسلم إلى ذنبٍ وشعرَ بأنه باعد بينه وبين ربه، فإن الطهور الذي يردُّ إليه نقاءه ويردُّ إليه ضيائه ويلفُّه في ستر الغفران والرضا أن يأخذ من مال عزيزٍ عليه فيُنْفقه للفقراء والمساكين زُلْفَى يتقرَّبُ بها إلى أرحم الراحمين.

ومن أروع الأمثلة في بيان ما للعتاء والءوء من أثر في الغفران والنءاء ما أوحى إى به إى نبيّه يحيى ليعلّمه أمّته: "وأمركم بالصدقة. وإنّ مّثل ذلك كمّثل رجلٍ أسره العدوُّ فأثقوا يدهُ إى عنقه وأرادوا أن يضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفدي نفسي؟ فجعل يعطيهم القليل والكثير ليفكّ نفسه منهم" (6233 صحيح ابن حبان، ص14/124).

إنّ الصدقات التي تبذلها على اختلاف أصنافها من زكاةٍ أو هبةٍ أو نفقةٍ أو غير ذلك ذات أهميةٍ كبرى في معاش الإنسان ومّعاده، وهي في أساسها تقويّ صلة المسلم بإى سبحانه وتعالى، وتقيه مصارع السوء..

قال رسول إى (ص): "صنائع المعروف تقى مصارع السوء وإنّ صدقة السرّ تطفء غضب الربّ، وإنّ صلة الرحم تزيد في العمر، وتنفي الفقر".

قال (ص): "حصّنوا أموالكم بالزكاة، وداؤوا مرضاكم بالصدقة، وأعدّوا للبلاء الدعاء". وما من شيءٍ أشقّ على الشيطان وأبطل لكيدِه وأقتل لوساوسه من إخراج الصدقات؛ ولذلك يقدق الشيطان في النفوس الوهن حتى يثبّطها عن البذل.. قال تعالى: (الشّيطانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللّٰهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/ 268).

إنّ الإنسان عندما يقسّم راتبه أو دخله على مصارفه ومطالبه يجعل جزءاً، قلّ أو كثر، للمستهلكات المعدومة. فهو يعدّ طعامه وشرابه ودواءه من هذا الحيّز المفقود. أما ما ينفقه في سبيل إى فقط فهو الذي يبقى.

وقد يسبقُ الظنُّ إى أن السخاء يُنقِصُ الثروة ويقرّبُ من الفقر ويسلبُ الرجلُ نعمة الطمانينة في ظلِّ ماله الممدود وخيره المشهود؛ وهذا الظن من وساوس الشيطان التي يُلقيها في نفوس البخلاء، والحقّ أن الكرمَ طريق السّعة والسخاء سببُ النماء، وأنّ الذي يجعل يديه ممراً لعتاء إى يطلّ ميسوطاً اليد بالنعمة مكفول اليوم والغد من رحمة إى وكرمه..

قال (ص): "ثلاثة أقسم عليهنّ وأحدنكم حديثاً فاحفظوه قال: ما زفصّ مالٌ عبدٍ من صدقة، ولا طلمّ عبدٌ مظلمةً فصرّ عليها إلا زادهُ إى عزّاً، ولا فتحَ عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتحَ إى عليه باب الفقر".

إنّ بذل القليل اليوم سيأتي بالكثير غداً. وقد جعل إى العطاء الجميل قرصاً حسناً لا يردّه لصاحبه مثلاً أو مثلين بل يردّه أضعافاً مضاعفة..

وإذا أغرى إى العبد بالإنفاق فقد كشف له أن نفقته على غيره وسيلةٌ جُلّى ليتولى إى عليه الإغداق بالنعمة من خزائنه التي يلحقها زفاد..

وفي الحديث عن إى تبارك وتعالى: "قال إى عزّ وجلّ: أنفقْ أنْفِقْ عليك، وقال: يدُ إى ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. وقال: أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع". قال تعالى: (وَمِمَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سبا/ 39).